

فلسفة التربية

كما برأها فموسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٩ —

« يفتح الطفل باللعب كما تفتح الزهرة »

« فروبل »

« الفرق بين مخ أرق فرد وأحط إنسان أكبر بكثير

من الفرق بين مخ أرق إنسان وأحط إنسان »

« البيولوجيا »

الناحيتان البيولوجية والفسيولوجية

شرحنا في المقالات السابقة عملية التربية على ضوء الفلسفة وأشرنا إلى بعض « ما يجب أن يكون » وعلينا اليوم أن نرجع إلى « مجموعة العلوم » التي تتناول « الإنسان » بالدراسة والتحليل لنسمع كلمتها فيه ، ولنتخذ من نتائجها المحتومة كل ما يفيدنا في تكوين « بطلنا المنشود » ، وفي ذلك بالطبع من زيادة الشرح وتكميل النقص ما فيه

سؤال : وما هذه « العلوم » ؟ وسأجيبك بأن ما يهتد منها هو علوم الحياة ووظائف الأعضاء والنفس والاجتماع ؛ ثم سئال : وما علاقة ذلك بالفلسفة ؟ وسأقول إن من خصائص الفلسفة الحديثة النظر في مبادئ العلوم ونتائجها ، والخروج منها بوحدة متسقة منسجمة فيها من المعنى الجامع ، والتفسير الشامل ، والاتجاه العام ، الشيء الكثير . وما دمنا في التربية حيال تلك القطعة الغدة من الخليفة « وأعني بها الإنسان » فلا بد لنا أولا من أن نحاول فهمها وكشف خفاياها ، حتى لا نكون أقوالنا عنها خيالية غير مجدية ، وحتى نستطيع بعد حل لغزها بالعلوم المختلفة أن نسير بها إلى كل ما تتطلبه طبيعتها ، ونحتلمه قواها ويسمح به استعدادها . فترى ما هي كلمة البيولوجيا والفسيولوجيا في الإنسان ؟ الجواب كما يلي :

الناحية البيولوجية

وقد أصبحت هذه الناحية هامة وجديرة بالاعتبار في التربية

ولا سيما بعد أن ظهرت « نظرية التطور » ووضعت الإنسان في مكانه بين سائر المخلوقات . ولملك تعرف أن محور البحث هنا يدور حول الكائن الحي من حيث ملامته بين نفسه وبين بيئته . ومع كل فلا يهتدنا من ذلك في التربية إلا المخ ، والطفولة ، والعقل (١) فأما المخ فقد ثبت نهائياً أنه في « الإنسان » أكبر الأنماخ بالنسبة للجسم ، وأن الفرق بين مخ أرق فرد وأحط إنسان أكبر بكثير من الفرق بين مخ أرق إنسان . وقد لوحظ أن القابلية للتعلم والتهديب تتمشى مع كبر المخ تمشياً مطرداً (٢) ، وإذن فعنى كبر المخ في الإنسان هو القابلية العظمى للتربية ، وقيام المخ ذاته مقام الانتخاب الطبيعي وجوهريته عملية التعليم ذاتها بالنسبة للإنسان والقدرة الكبيرة على التخلص من الفرائز أو تهذيبها مادام المخ يستطيع أن يقوم مقامها .

(٢) وأما طفولة الإنسان فهي أطول طفولة معروفة ، إذ بينما يصير فرخ الطير قادراً على الاستقلال بنفسه بعد أيام قليلة ، لا يصير ابن الإنسان كذلك إلا في سن لا تقل عن العشرين في الشعوب الراقية على الخصوص . وإذن فالترية السليمة هنا أداة لا مندوحة عنها لاحكام عملية النمو وتحقيق آمال الجماعة في أفرادها (٣) بقي « العقل » وقد أثبتت جميع تجارب الباتولوجيا والتشريح والفصل الجزئي علاقته التامة بالمخ المشتمل على المراكز العليا التي تقوم بالعمل المروى تاركة الأفعال العكسية واستجابات الفرائز للمراكز السفلى في العمود الفقري . وهذا « المخ » قابل للتربية كما يقول الأستاذ Halleck ولا سباً في سن الطفولة والشباب لأنه يكون حينذاك « مرناً » سريع التأثر ، وإذا فبسور تقوية نسيجه وقواه بتكوين عادات عصبية توفر الوقت وترك للعقل فرصة للتفكير فيما هو أرق من « الدفاع » (٤) الذي يبدو أنه الوظيفة الأساسية للجهاز العصبي عند الحيوانات جميعاً . والتربية هنا توظف القوى الناعمة ، وتحفز السيقظة ، وتربط الرذيلة بالألم ، والفضيلة باللذة ؛ وتغرس الماديات الحسنة التي قد تعادل الفرائز في قوتها . ويؤكد الأستاذ Lankester بعد هذا

(١) ويسرنا هنا أن نقول : إن « ابن مسكويه » الفيلسوف الاسلامي قد سبق البيولوجيا الحديثة في تلك الملاحظة السديدة وقد توفي في سنة ٤٢٠ هـ (٢) ويدخل في الدفاع للمأكل والشرب والنسل والمقاتلة وكل ما يضمن البقاء للكائن الحي

في بعض بالرغم من شدة امتزاجهما، فهما يكونان وحدة متسقة ويؤثر بعضهما في بعض تأثيراً كبيراً. ألا تنمو قوى العقل بالحس والحركة؟ أو ليست الإرادة حركة مُروّى فيها؟ أو ليس «الشعور» — بحد هذا — صدى للإرادة والمعرفة؟

ولذلك تنحصر مهمة التربية هنا في تسليح الجهاز العصبي بردود أفعال حرة منها الاعتيادي — عن طريق العمود الفقري — ومنها المروّى فيه — عن طريق المخ — وفي الاستفادة من نتائج التجارب القائلة بأن العمل ينهك المخ فلا يكون لعمله بعد أربع ساعات قيمة ما، وبأن المخ يحتاج إلى غذاء خاص من الهواء النقي وغيره، وبأن القوى العقلية تمر في مراحل تمتاز أولها بسيادة «الذاكرة»، وثانيها بسيطرة «الخيال»، وثالثها بحكم «الفكر»، وبأن التعب العقلي يمكن أن يجنب إلى حد كبير بتنويع العمل على المراكز الخفية المختلفة، وبأن صحة الجسم واجبة والعدل بين مجهود الجسم والعقل أوجب، وبأن وبأن مما لا يتسع المقام لذكره...

هذا إلى أنها — تمسكاً مع الحقائق أيضاً — تنصح بإدخال «العمل اليدوي» و«اللعب» في عملية التدريس. ذلك أنها تعتبر الأول خير أداة للتعبير عن النفس، ولتنمية العقل وتدريب الحواس، وربط المواد، وتقوية الإرادة، واكتساب الذوق الجميل، وغرس القدرة على الإنتاج، وتوفير الدقة، وجب العمل واحترام العمل، وتقدير العاملين^(١). وأما الثاني — وهو اللعب — فيقول عنه «فروبل» إنه يجعل الطفل يتفتح كالأهرة ويقول عنه شلر Schiller: «إن الإنسان لا يكون إنساناً إلا به» ذلك أنه بعيد النور في طبيعة الإنسان، حتى أن الشعوب نفسها لتلعب أحياناً وتلهو كالأطفال، وأنه ذو وظيفة أساسية في الحياة وإن اختلف العلماء في كنهها^(٢)، وأنه إذا ما دخل في العمل الجدي جعله سهلاً مستساغاً وهيناً محبوباً. أليس الفن نفسه صدى للعب الخيال المنتج؟ وإذا فلا مندوحة لنا من العناية به في المدرسة والتدريس، ولا مندوحة لنا من أخذ الجميع بالألعاب

أن الجهاز العصبي في الأمم المتعلمة أقدر على قبول التربية منه في الأمم الأخرى. وإذا فالفرق بين الوحشية والتمدن هو في الحقيقة فرق بين من يستجيب صاحبه للفرائز الطبيعية استجابة الحيوان، ومن يستجيب صاحبه لها استجابات حرة مهذبة معدلة فيها التسامح والتعويض، والكبت والتجوير.

ولكن هل ترى التربية إلى جعل جميع أعمالنا آلية عديمة الشعور؟ الجواب كلا! ذلك أن العقل الآلي لا يصلح قط للظروف الاجتماعية الداعية التغير والتشكل. وإذا فهي ترى إلى إدخال عنصر «الشعور» في الأعمال حتى يمكنها إحكام التصرف على ضوءه المنير، وحتى تستطيع أن تشرق به على «اللاشعور» ففضى ظلمته، وعلى الزمن فتنبهنا إليه، وعلى «المثل الأعلى» فتطمح بنا نحوه. وهناك لا نكون مجرد «آلات» تذهب إلى العمل وتعود منه إلى البيت، ثم نخرج إلى المقهى، وهكذا دواليك على نحو أوتوماتيكي خاص؛ وإنما نكون في أعمالنا كائنات حساسة شاعرة تحيا حياة اجتماعية خصبة فيها التقليد النافع، والتضحية السامية، والمحبة النابضة، والمنافسة السليمة، والقابلية لإصلاح أنفسنا وعاداتنا كلما شعرنا بالنقص ورأينا السكّال^(٣).

أما النظرة العامة التي نخرج بها من هذه الناحية البيولوجية فهي العيش أولاً ثم السكّالات، العيش ثم الفلسفة والفن؛ هذا إلى جعل «الطفل» موجياً يؤثر لاسالباً «بتأثر»، لأن المخلوقات الحية قد تشكلت بردود أفعالها أكثر مما تشكلت بالبيئة. ويقضي بالطبع جعل المدارس دور «نشاط» نظري وعملي لا دور حشو واستماع، والنظر إلى التربية ذاتها كموض أسامي يسد للإنسان ذلك النقص الهائل الذي لا نجده في الحيوان، وكأسلوب من «المواظبة المثلث بين المرء وبيئته» كما يقول الأستاذ هورن Horn^(٤).

الناحية الفسيولوجية

أما هذه الناحية فتقول مع بعض مذاهب الفلسفة إن الحياة قد بدأت بالمادة ثم بالروح، وإن الجسم والعقل لم يتلاش بعضهما

(١) ملحق هنا على رجال الفاني والحانات وما أشبههم، فانهم جميعاً يصدرن في سلوكهم عن عادات غير مرنة، ويحتاجون إلى «شعور كامل» بتقصيرهم وبكمال غيرهم أولاً، ثم إلى إرادة قوية ثانياً ليقلموا عن هذه العادات (٢) أنظر كتابه A Philos. of Ed.

(١) وبذلك لا يكون العمل وصية لدى شبابنا الناهين، ولا يكون العمل حثالة الشعب في نظر التملين! (٢) أنظر نظريات شلر وسبنسر ولازاروس وجروس وبلدوين بكتب علم النفس المختلفة